رحلة الغزالي الباحث عن الحقيقة

الباحث: عبد الله ركماوي
اشراف: منير بهادي
مخبر الفلسفة وتاريخها-جامعة وهران2-

عُرف الروم والفرس بأنهم رواد علم ومعرفة عكس العرب في الجاهلية، إلا أن العلوم المتسربة من البابليين والكلدنيين للعرب كانت بداية نشأة الكثير من العلوم التي كان العرب في حاجة إليها كما أن الإسلام كان له الأثر الكبير على الفكر العربي فأعطاه حيوية وتألق ليصبح محطة مهمة في البحث والدراسة ليظهر بعد ذلك في المسلمين الفلاسفة والمتكلمين والرياضيين وغيرهم فنشأت فلسفة عربية إسلامية. إلا أن مشكلة الحقيقة فيها بقيت غامضة ولم ترى النور إلا مع أبو حامد الغزالي الذي وضع بصمته في الفكر العربي الإسلامي. فأين تكمن الحقيقة في الفلسفة العربية الإسلامية؟ هل استطاع الغزالي أن يصل إليها؟ وما حقيقة منهج الغزالي؟

إن الفتوحات التي قامت بها الجيوش الإسلامية ساعدت على الصلح بين الأتراك والمسلمين ودخولهم في الإسلام ووقوفهم إلى جانب الجيش الإسلامي. شرع الأتراك في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة فكان منهم الجند والقادة والكتّاب وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب ولما تولى المعتصم العباسي الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركي واسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا بذلك يشاركون في تصريف شؤون الدولة[1].

ظهرت قبيلة من القبائل التركمانية التي اتخذت من بلاد النهر بلداً لها وهم السلاجقة الذين تعاظمت قوتهم مع بداية القرن الخامس الهجري فحققوا انتصارات في الولايات التابعة لهم فنالوا اعتراف الخليفة العباسي بدولتهم وفي فترة حكم ألب ارسلان لهذه الدولة كان الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك وزيرا له حيث كان سنيا فرأى انتشار الشيعة والباطنية ففكر في إنشاء المدارس النظامية. أوقف عليها الأوقاف الواسعة واختار لها الأكفاء من الأساتذة فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة[2].

لقد أدى الصراع بين المذهب الشيعي والمذهب السني إلى ظهور علماء ومفكرين وأفكار جديدة ومن هؤلاء المفكرين أبو حامد الغزالي الذي كان لتلك التغيرات السياسية والاجتماعية والفكرية الأثر البالغ في تكوينه الفكري ليصبح من أعظم مفكري الإسلام وابرز المجددين في التاريخ الإسلامي فألف في الفقه والأصول والكلام والحكمة .دَرَسَ الغزالي بالنظامية وأعجب الخلق من كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة وأحبوه[3].

ولقد اهتم الغزالي بجانب التصنيف والوعظ والإرشاد والتدريس كما أنه قام بمواجهة بعض الفرق الإسلامية التي تخالف أرائه وأفكاره، وعمل على إطلاق فكره من قيود التقليد التي كانت لا تزال مستحكمة فيه فأصبح قوله بمثابة الكلمة الفاصلة في العديد من المجالات إلا أنه أعلن شكه في المعارف وأراد بهذا الشك كسر تلك الطريقة التقليدية في البحث عن الحقيقة أي أن هذا الشك عنده انحلال رابطة التقليد" وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد"[4].

إن الغزالي يرى بأن العلم اليقيني l'apodictique هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا شك بعده والذي يحدث معه الأمان النفسي والعقلي والقلبي لكن عندما بحث عن هذا العلم وجد نفسه خاليا من أي علم تنطبق عليه هذه الصفات التي ذكرها.

ولقد اتخذ الغزالي الشك المنهجي la scepticisme méthodique نافذة يطل منها على الحق وهذا ما ساعد في بروز كثرة الفرق والفتن التي عرفها عصره حيث تزعم كل فرقة أن منهجها يوصل الإنسان إلى المعرفة الحقة، فاختبر المحسوسات les concrets لكي يعرف هل بإمكانها أن توصله إلى المعرفة اليقينية l'apodictique فانتهى به طول التشكك إلى أن نفسه لم تسمح له بالتسليم الآمن في المحسوسات ويقول فيها: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف[5].وصل الغزالي إلى نتيجة مفادها أن الحواس غير كافية في المعرفة إذ لابد من تدخل سلطان العقل الذي له القدرة على معرفة حقائق الأشياء، إذ لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات. العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما موجوداً معدوماً واجباً محالاً.[6]

العقل عند الغزالي وسيلة تحصل بها المعرفة وبه يمتاز الإنسان عن سائر الكائنات ويمكنه التمييز بين الصح والخطأ ولكن رغم ثقة الغزالي التامة في العقل كوسيلة لتحقيق العلم اليقيني إلا أنه ظهر عنده حاكماً آخر إذ تجلى كذب العقل في حكمه.

قام الغزالي بمعاينة المعلومات الصادرة عن الحواس والصادرة عن العقل وصل إلى نتيجة مفادها أن العقل يكذب الإحساس والإحساس يكذب العقل وهذه النتيجة أوقعته في حيرة دام عليها قرابة شهرين ولم يرجع إلى الإيمان بحكم الضروريات والبديهيات العقلية إلا بمساعدة إلهية خارجية أي بنور قذفه الله تعالى في صدره وبالنسبة له فإن "العقل لا يمكن أن يكون مصدراً للعقيدة الدينية ولا يكون له إلا دور لاحق يتمثل بتحقيق التطور العقلي، فالعقل لا يفسر الدين ولا يبرره بل الدين هو الذي يعطي العقل مشروعيته فعلينا أن نفسر المبادئ العقلية انطلاقا من الدين لا أن نفسر الدين تبعاً

للعقل"[7] وهذا هو الغزالي قد حدد لنا شرط اليقين الذي أخرجه من دوامة الشك بعد ذلك النور الذي قذف في صدره من الله أخذ يبحث عن الحقيقة فوجد أنها لا تعدوا أن تكون لدى المتكلمين أو الفلاسفة أو الباطنية أو الصوفية.

عالج أبو حامد الغزالي طرق المتكلمين فدرس فكرهم واطلع عليه حيث يقول: "ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف"[8] فخلص إلى أن مقصود علم الكلام هو حفظ العقيدة لكل مسلم أخذ عقيدته ومبادئه من القرآن والسنة وحفظها من كل الشكوك التي تحاك ضد أصول الدين "صادفته علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصودي وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة"[9] إذاً ففي نظره علم الكلام لم يف بحاجته ولم يتمكن من أداء المهمة الموكلة إليه وما قال هذا إلا لأنه ألف كتبا كلامية متعددة منها (الاقتصاد في الاعتقاد) و(الدرة الفاخرة) وهذا يعني أنه موضوعيا كما أنه لا ينكر بأن يستفيد البعض من علم الكلام مثل الدواء الذي قد ينفع مريض ولا ينفع آخر "وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات فليس في علم الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف. وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك التعمق في علو آخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود"[10] وهذا لم يجعل الغزالي ينهي عن تعلم علم الكلام بل جعله فرض كفاية لتكون لكل مسلم أداة يدافع بها ضد المبتدعة حيث يقول في هذا الصدد "إذا حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ونبغت لها جماعة لفقوا لها شبهات ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً فصار المحذور بحكم الضرورة مأذونا فيه، بل صار من فروض الكفاية وهو القدر الذي يقابل المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة و ذلك إلى حد محدود"[11].

لقد حذر الغزالي العامة من الاشتغال في علم الكلام بل يكتفوا بالاطلاع عليه والتمرس بأدلته خوفاً منه على عقيدتهم ويشتغل فيه بعض العلماء رفعاً للحرج حيث يقول "إن دين عوام الناس ينبغي أن يكون صافياً نقياً بعيداً عن تعقيدات الجدليين والمتكلمين ولهذا ينبغي إلجام العوام عن علم الكلام"[12].

وفي نظر الغزالي أن علم الكلام هو إقامة البرهان على وجود الله وصفاته وأفعاله وصدق رسله، ومنهج المتكلمين لا يؤدي إلى اليقين *la certitude* إذ لا يخلق عقيدة الإسلام في إنسان خالي منها.

جاء على لسان الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال "إنه علم يقينيا إن ما ذكر في كتب المتكلمين من الرد على الفلاسفة إنما هي كلمات معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد"[13] قرأ الغزالي كتب

الفلسفة في أوقات فراغه بغرض المطالعة من دون أستاذ وكان ذلك عندما كان يدرس فعرف علم الفلسفة في أقل من سنتين ثم واظب على التفكير فيه لمدة سنة فتمكن من التعرف على ما فيه من تحقيق وتخيل وخداع وتلبيس، وصنف الفلاسفة إلى ثلاثة أصناف وهم الدهريون الطائفة التي بحدت الصانع والطبيعيون الباحثون في عالم الطبيعة والإلهيون وهم الفلاسفة المتأخرون وقسم علومهم إلى ستة أقسام وهي الرياضية، المنطقيات، الطبيعيات، الإلهيات، السياسيات والخلقية.

ولقد قام الغزالي بتكفير الفلاسفة في ثلاثة مسائل وبدعهم في سبعة عشر مسألة في كتابه التهافت وهذه المسائل الثلاث هي:

- قولهم بقدم العالم وأزليته.
- قولهم إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.
- إن الأجساد لا تحشر وإنما المثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية.

إن غرض الغزالي من دراسة الفلسفة والقيام بهذه التصنيفات والتقسيمات كان من أجل البحث عن الحقيقة إلا أنه لم يجدها فاضطر إلى نقد الفلاسفة وتبيين تهافتهم وتكفيرهم في بعض المسائل.

واصل الغزالي رحلته في البحث عن الحقيقة عندما لم يجدها عند المتكلمين والفلاسفة إلى الحركات الباطنية التي يقال عنها أنها نابعة من الفلسفة اليونانية التي تغذت بجميع أفكارها. فألف أبوحامد كتاب فضائح الباطنية نزولاً عند رغبة الخليفة المستظهر بالله العباسي، ولقد انقسم الكتاب إلى قسمين قسم به فضائح الباطنية وخصص القسم الثاني للمستظهر بالله ولما كان وعي الغزالي بخطر الباطنية على الإسلام كبيراً هاجمهم هجوماً عنيفاً. يقول "إن الباطنية إنما لقبوا بها لدعواهم إن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر وأنها توهم عند الجهال الأغبياء صورا جلية وهي عند العقلاء والأذكياء رمزا و إشارات إلى حقائق معينة"[14].

كان الغزالي شجاعاً في حملته على الباطنية في الوقت الذي ازداد خطرهم وهددوا الناس وقاموا بالعديد من الاغتيالات التي لم تكن تستثني أحد بل كانت تهدف لتصفية الساسة والمفكرين وهم لم يكونوا كفاراً مقطوعاً بكفرهم نظراً لأفكارهم التي نشروها في المجتمع وغذوا بها أفكار الشباب والناس جميعاً والتي تبدوا من مظاهرها أنها تطهير للدين من الضلالات والحفاظ عليه لكن من داخلها تهدف إلى طمس العقائد الإسلامية وتروج لمبادئ هادمة للإسلام ومقوضة لأركانه راغباً في عودة البشرية إلى غياهب الظلام التي عاشت فيها قبل الإسلام معتمدين على القول الباطن والعلوم السرية وأساليب المكر والمراوغة لذلك أن أبو حامد الغزالي لم يصل فيها إلى اليقين فكشفهم وفضحهم في كتابه الذي افرده في هذا الشأن.

وهاهو الغزالي يواصل رحلته الاستكشافية ليحط رحاله عند الصوفية باحثاً عن الحقيقة التي لم يجدها عند المتكلمين والفلاسفة والباطنية. لقد سلك الغزالي طريق الزهد والتأله وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة، قصد الحج دخل الشام وأقام فيها عشرة سنين أخذ يجاهد نفسه ويهذب معاشه وغير أخلاقه "فانقلب شيطان الرعونة وطلب الرياسة والجاه والتخلق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس وكرم الأخلاق والفراغ عن الرسوم والترتيبات وتزيا بزي الصالحين وقصر الأمل ووقف الأوقات على هداية الخلق ودعائهم إلى ما يعينهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية والانقياد بكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة"[15].

لقد جعل الغزالي التصوف طريق المعرفة بالله حيث أنه افرد كتاب إحياء علوم الدين في الكلام عن المعرفة الصوفية موضحاً كيفية أدائها وموضوعها ومنهجها وغايتها. وبهذا يكون منكراً بأن يكون القلب أو الحواس أداة المعرفة بصفة عامة إلا أن القلب عنده أداة للمعرفة الصوفية. والمعرفة بالله فطرية في الإنسان عند الغزالي ومنهجها عنده وعند غيره من المتصوفة يغاير منهج المتكلمين والفلاسفة فيها فمنهجها -المعرفة- عند الصوفية هو الكشف الذي يعتبر منهج ذوقي خاص وإدراك وجداني مباشر يختلف عن الإدراك العقلي المباشر وعن الإدراك الحسي المباشر أو الحدس. ويقول الغزالي عن المعرفة إنها "قد تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المناداة والمكاشفة ولبعضهم بتعلم واكتساب"[16] الصوفية عند الغزالي هم السالكون طريق الله وطريقهم أصوب طريق وسيرتهم أحسن وأفضل السير وأزكى الأخلاق أخلاقهم وكل ذلك مقتبس من مشكاة النبوة فأقبل على طريق الصوفية وانتهت أزمته الروحية التي عاناها حيث أنه كان صادقا مع نفسه ولم يخدعها ليصبح مثالاً لكل من يريد التكمل الخلقي الروحي كما أنه استطاع أن يجعل من التصوف علما وحدد قواعده ومنهجه وآدابه ليخلص في الأخير الغزالي إلى أن الكشف الصوفي أو الإلهام هو ابرز مصادر المعرفة اليقينية بعد الوحي ويكون ذلك عن طريق الفيض الإلهي وتكون هذه المعرفة القلبية الكشفية مصحوبة ببرد اليقين. لكن يبقى السؤال المطروح هل هذه الحقيقة تنكشف للمتصوف فقط أم يمكن أن تنكشف للعامة؟ بمعنى هل هذه الحقيقة نسبية أم مطلقة؟

قائمة المصادر و المراجع :

1- **أبو حامد الغزالي**، إحياء علوم الدين: المطبعة العثمانية، ط1993،1.

2- **أبو حامد الغزالي**، إلجام العوام عن علم الكلام: المكتبة الأزهرية للتراث، مصر،1998.

3- **أبو حامد الغزالي**، المنقذ من الضلال: تحق: محمود بيجو، دار التقوى، دمشق، ط2، 1992.

4- **أبو حامد الغزالي**، فضائح الباطنية: تحق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

5- **أبو حامد الغزالي**، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: تحق: سليمان دنيا، ط1.

6- **أبو حامد الغزالي**، مجموعة رسائل الغزالي: قدم له احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،1988.

7- **تاج الدين ألسبكي**، طبقات الشافعية: مطبعة عيسى ألبابي الحلبي ط1، 1384ه

8- **عبد الفتاح محمد سيد احمد**، التصوف بين الغزالي وابن تيمية: دار الوفاء ط1، 2000.

9- **عامر النجار**، نظرات في فكر الغزالي: شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر 1989.

10- **علي محمد الصلابي**، دولة السلاجقة: ط1، مؤسسة اقرأ القاهرة، مصر 2006.

11- **علي محمد الصلابي**، سيرة الإمام الغزالي: دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، 2007.

12- **مصطفى غالب**، في سبيل موسوعة فلسفية: دار مكتبة الهلال، بيروت، 1998.

---

[1] علي محمد الصلابي، دولة السلاجقة، ط1، مؤسسة اقرأ القاهرة، مصر 2006، ص20 .

[2] علي محمد الصلابي، سيرة الإمام الغزالي، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، 2007، ص13.

[3] تاج الدين ألسبكي، طبقات الشافعية، مطبعة عيسى ألبابي الحلبي ط1، 1384ه، ص106.

[4] مصطفى غالب، في سبيل موسوعة فلسفية، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1998، ص41.

[5] نفس المرجع، ص78

[6] عامر النجار، نظرات في فكر الغزالي، شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر 1989، ص78.

[7] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، قدم له احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988،ص15.

[8] أبو حامد الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحق: سليمان دنيا، ط1، ص339.

[9] عبد الفتاح محمد سيد احمد، التصوف بين الغزالي وابن تيمية، دار الوفاء ط1،2000، ص58.

[10] نفس المرجع، ص59.

[11] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المطبعة العثمانية، ط1،1993، ص22.

[12] أبو حامد الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، 1998، ص38.

[13] أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحق: محمود بيجو، دار التقوى، دمشق، ط2، 1992ص21.

[14] أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، تحق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، ص11 .

[15] عامر النجار، نظرات في فكر الغزالي، ص3.

[16] الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص3 .